الصهيوني الأول

[مهداة إلى الأقلام النبيلة المجندة لنصرة فلسطين]

للأستاذ محمد سعيد الأفغاني

— ٢ —

في القاهرة الكبرى : فتنة الجمل :

سقط الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان مضرجا بدمه ، بحبة المؤامرة الخطرة التي دبرها باحكام عبدالله بن سبأ مالى الأرض بتنا وشرورا وفسادا . فضج الناس من هول الفاجعة وفداحة الخطب وجأروا يطالبون بثأر عثمان . فانبلج ذهن ابن السوداء عن خطة مضاعفة ينجو بها هو ومن معه من القصاص ، ثم يتحفز بها لإحكام مؤامرة أكبر ، وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر إلى جانبها الكارثة بعثمان رضى الله عنه .

لقد كان المرحوم جريشا (تصغير لجريجورى ويستعمل غالباً للتحبيب) أستاذى الروحى ، وزوجى الغيور ، ووالدى الحنون !.

لم يود جريشا مفارقة هـذا العالم ... وكان وهو على فراش وت يصرخ قائلا : — لا أريد الموت ... أريد الحياة ... أريد قاء إلى جانبك ... لدينا رسالة روحية سنؤديها معا ... فلم به الله إلى سؤاله وفاضت روحه بين ذراعى .

انظر إلى ملابسه ... فها هى معلقة حيث تركها .. هاك كتبه اللاهوتية ، وسريره وعصاه ، وسترة نومه ، ثم ها هى ورة (يسوع) لا تزال حيث أحب أن تكون ... كلا ؛ إن ريشا لم يمت . إنه حى فى قلبى . وقد قطعت على نفسى عهداً بألا اشر رجلا سواه ! ...

فالداخل إلى بيت كلارا اليوم ، يرى فى صدره تمثالا نصفيا سيس جريجـورى ، وقد علقت أرملته فوقه قنديلا زيتيـاً تنطفىء شعلته ، وإذا ما جاء يوم الأحد من كل أسبوع ارتدت سواد ، وابتاعت باقة من الزهور واتجهت إلى مقبرة تقع على ل صهيون فى القدس لتبـكى ذلك القس الغامض الراحل .

نجاتى صدقى

انضم هو ومن تابعه إلى على بن أبى طالب ، حين انبرت السيدة عائشة وطلحة والزبير يؤلبون الجماهير للطلب بدم عثمان ، فـكان لابد للأمام على من الخروج لرد السيدة ومن معها خشية أن ينبثق صدع جديد ، فلما وصل إلى الـكوفة كان ابن السوداء وأعوانه أنشط جنده فى الدعوة لأمره ، وبذلك كانوا فى حرز حريز من الثائرين لعثمان الذين احتلوا البصرة يستعدون .

جرت بين على وأصحاب الجمـل مكاتبات ثم سفراء ووفود ، وتفاهم الفريقان ، وفرح الناس بانقشاع الغمة ، وتراضى المسلمين وجمع الـكلمة على المشاورة فى كل أمر ، وعلى أن يكون أول الأمور حلا أن يأخذ على فى قصاص قتلة عثمان ، ورتق هذا الفتق الذى أحدثه ابن سبأ وأعوانه فى أرض الجزيرة .

أرسل على إلى رؤساء أصحابه بما تم عليه الإجماع من اتفاق وكذلك فعل طلحة والزبير ، واتفقوا على الصلح ، وبات الناس بليلة لم يبيتوا بمثلها فرحاً وابتهاجاً بما أشرفوا عليه من العافية والسلامة . أما ابن السوداء وأصحابه فقد باتوا بشر ليلة باتوها قط ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم فى سر من الناس خشية أن يفطن أحد لما يبيتون من الشر .

المؤامرة :

أشرف الفريقان من أصحاب على وأصحاب الجمل على الصلح والإجتماع ، واطمأنوا إلى نوم هنيء لما وفقهم الله إليه ، وكان فى هذا مايسر الناس جميعا ، إلا هذا الفريق الذين لايطيب لهم عيش إلا بتأريث الشر ، وهم هؤلاء السبئية المؤلبة على عثمان والوالغة فى دمه ، عرفوا أن لا مقام لهم سواء انتصر على أم خصومه . لأن علياً لن يسكت عن إقامة حد متى تم له الأمر وأمكنته الفرص ، وكذلك أصحاب الجمل إن ظفروا لم يتركوا أحداً ممن شرك فى دم عثمان ؛ لقد كان هم الناس من الفريقين قتلة عثمان أينما كانوا .

جمع ابن السوداء هؤلاء النفر فى ظلمـة الليل البهيم ، وكان منهم علباء بن الهيثم وعدى بن حاتم وخالد بن ملجم وسالم بن ثعلبة العبسى وشريح بن أوفى والأشتر ... ، فى عدة ممن وقعوا فى شرك الطاغية عبد الله بن سبأ فلعب بعقولهم وسيرهم وأتباعهم إلى عثمان ، فجمعهم فتداولوا بينهم هذا الـكلام :

« ما الرأى ؟ وهذا والله على — وهو أبصر الناس بكتاب

الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك — وهو يقول ما يقول[1] ولم ينفر إليه إلا قتلة عثمان والقليل من غيرهم ، فكيف به إذا شام (نظر) القوم وشاموه ، وإذا رأى قلتنا فى كثرتهم ؟ ؟ ... أنتم والله ترادون ، وما أنتم بأنجى من شىء » .

الأشتر : أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما ، وأما على فلم نعرف أمره حتى كان اليوم . ورأى الناس فينا واحد ، وإن يصطلحوا فعلى دمائنا ... فهلموا — يا قتلة عثمان — فلنتواثب على على فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون .

ابن السوداء : بئس الرأى رأيت : أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذى قار ألفان وخمسمائة ، وهذا ابن الحنظلية (القعقاع ابن عمرو) وأصحابه فى خمسة آلاف : بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلا ؛ فارقأ على ظلعك[2] .

علباء بن الهيثم : — انصرفوا بنا عنهم ودعوهم ؛ فإن قلوا كان أقوى لمدوهم عليهم ، وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم . دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تثقون به ، وامتنعوا من الناس .

ابن السوداء : — بئس ما رأيت ، ودّ — والله — الناس أنكم على جديلة (ناحية) ولم تكونوا مع أقوام برآء ، ولو كان ذلك الذى تقول لتخطفكم كل شىء .

عدى بن حاتم : — والله ما رضيت ولا كرهت ، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله فى خوض الحديث ؛ فأما إذا وقع ما وقع ونزل من الناس هذه المنزلة ، فإن لنا عتاداً من خيول وسلاح محموداً ؛ فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتم أحجمنا »

ابن السوداء : — أحسنت .

سالم بن ثعلبة : — من كان أراد فيما أتى الدنيا فإنى لم أرد ذلك ، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتى ، ولئن طال بقائى إذا أنا لاقيتهم لا يزيد على جزر جزور[3] . وأحلف بالله : إنكم لتفرقون من السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف

ابن السوداء : — إن هذا قد قال قولا .

شريح بن أوفى : — أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، تؤخروا أمراً ينبغى لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغى ل تأخيره ؛ فإنا عند الناس بشر المنازل ، فلا أدرى ما الناس صان بنا غداً إذا ما هم التقوا .

ثم تكلم ابن السوداء بعد أن أدلى كل بدلوه فقال :

« يا قوم ، إن عزكم فى خلطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا ا الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر : فإذا من أنتم لا يجد بداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير و رأى رأيهم عما تكرهون . فأبصروا الرأى وتفرقوا عليه وال لا يشعرون[1] » .

وعلى ذلك انفض الاجتماع الأثيم ، وأحكمت الخطة .

قاتل الله ابن السوداء ، فوالله ما أراه إلا شيطاناً خلق مارج من نار ، ما أبصره بطرق الفتنة وبث العقارب ، وما توهينه تلك الطرق التى أشار بها أصحابه ، ما أفطنه إلى ضعفها غنائها ، ثم كيف آل به تقليب الرأى حتى اهتدى إلى التى ا بعدها شر منها : قاصمة الظهر ومبيدة الأمم .

ومنذ الذى يقرأ هذه المؤامرة ، وكيف أدار أصحابها الأ على وجوهها المختلفة ، ثم لا يرجع ذهنه بسرعة البرق إلى ما ذ أصحاب السير عن مجلس كفار قريش فى دار الندوة : يجي الرأى فى محمد صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرج وقد حضر اجتماعهم ذاك إبليس بهيئة شيخ نجدى ، فجعل عرض أحدهم رأياً فى القضاء على دعوة محمد وهنه وأظهر فسا حتى أعيا القوم جميعاً بحجته ، فسألوه : ما عنده ؟ فقا تختارون من كل قبيلة رجلا جلداً ، فيجتمعون ويضربون ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل ، ولا طاقة لبنى ه بقبائل العرب كافة » .

أليست تلك المؤامرة نسخة (طبق الأصل كما يقولون) هذا المجلس ؟

---

(١) كان على بعد أن افتقت الكلمة خطب فى أصحابه فقال :
« ألا وإنى راحل غدا فارتحلوا ، ألا لا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشىء ، ولينحن السفهاء على أنفسهم » الطبرى ٣—٥٠٧ وهم يعنون قوله هذا وقد نزل عليهم كالصاعقة إذ كانوا يرون أنفسهم أخلص جنده وأقواه

(٢) أى : إنك ستخيف فتكلف ما تطيق وأصلح أمرك . القاموس

(٣) يريد : وقتاً بمقدار ما تنحر الذبيحة ويسلخ جلدها .

(١) خلاصة حديث هذه المؤامرة المؤرخ الطبرى فى تاريخه ٣/٥٠٧—١

أليس ابن السوداء هذا إبليس بعينه ؟ وأستغفر الله ، فأين يقع منه إبليس ؟ لهو والله أبلغ نكاية بهذه الأمة من إبليس ، وأبعد أثراً فى الدس والكيد . وأخشى أن يكون الذى ظنوه إبليس ابناً من أبناء السوداوات أبطال الشر والمكر والفساد من اليهود : تنكر لهم شيخاً نجدياً إحكاماً لدسيسته .

* * *

لما كان النفس انسل هؤلاء المؤتمرون — وما يشعر بهم جيرانهم — إلى الأمر الذى أجمعوا عليه انسلالا وعليهم ظلمة ، فخرج مضريهم إلى مضريهم ، وربيعيهم إلى ربيعيهم ويمانيهم إلى يمانيهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين بعثوهم ، وحيرتهم الصدمة فقد كانوا باتوا على صلح تغشاهم الطمأنينة والسكينة .

فجيء الناس جميعاً ، وخرج طلحة والزبير فسألا : « ماهذا ؟ » فقالوا : « طرقنا أهل الكوفة ليلا » . فقالا :

« قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ، ويستحل الحرمة ، وأنه لن يطاوعنا » .

ثم خرجا فى وجوه الناس من مضر ، فبعثا إلى اليمنة — وهم ربيعة — عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يعبئها ، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وثبتا فى القلب .

استطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم ؛ فسمع على الصوت — وكان السبئيون المتآمرون قد وضعوا طبقاً لخطتهم رجلا قريباً منه ليخبره بما يريدون — فلما قال : « ما هذا ؟ » قال ذاك الرجل :

« ما فجئنا إلا وقوم منهم قد بيتونا ، فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل ، فركبونا وثار الناس » .

فقال على لصاحب ميمنته : « ائت الميمنة » وقال لصاحب ميسرته : « ائت الميسرة » ثم قال : « قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا » .

والسبئية مجتهدون فى إنشاب القتال لا يفترون ، والتحم الناس بعضهم ببعض ، ودارت المعركة فاصطلى بنارها الناس جميعاً ، وكاد هؤلاء الناس الذين باتوا مصطلحين على خير حال ، كادوا أن يتفانوا ، وانحسرت المعركة عن خمسة عشر ألفاً من القتلى وما لا يحصى من الجرحى ، وكان فيمن قتل رؤوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين الأولين ، وسجل التاريخ أفجع نكبة حلت بالمسلمين منذ كان للناس تاريخ .

* * *

وبعد ، فهل ألب الأمصار على عثمان إلا ابن السوداء ؟

وهل غرهم أحد بمثل ما زور لهم من كلام ترويجاً لدعوته ؟

وهل دم عثمان إلا نجاح خطة ابن السوداء هذا ؟

وهل استطاعت الروم وفارس أن تنال من هؤلاء الفاتحين بمثل ما نال منهم ابن السوداء ؟

وهل هذه العشرات الألوف من دماء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعيهم إلا ثمرة خبه وكيده ومكره بهذا الدين وأهله ؟

وما زال المسلمون من يومهم ذاك إلى الآن فى شرور متتالية يزجها إليهم أبناء السوداوات[1] فى مختلف الأعصار والأمصار : دساً فى دينهم وتفرقة لكلمتهم ، واستهانة بتاريخهم ، واستخفافاً بتقاليدهم ومقوماتهم ، ووضعاً من شأن لغتهم ، وإفساداً لأخلاقهم ، وتهويناً من سلامة نظمهم ، وإشادة بكل مذهب أجنبي يفسكك عراهم ويأتى بنيانهم من القواعد . والغريب أننا قوم (طيبون جدا) لا نرى غضاضة فى توسيد أمورنا الصغيرة أو الكبيرة إلى الذين كانوا مطايا الاستعمار وجواسيس الأجانب ، وأجراء لكل دعوة هدامة ودولة طاغية . نفعل ذلك عن غفلة تارة وعن غرور تارة ، وقد كتب الله على هذه الأمة ألا تفطن إلى أبناء السوداوات هؤلاء إلا بعد أن يبلغوا منها ما أرادوا ليقضى الله أمراً كان مفعولا[2] .

ترى هل بدأنا نتعظ ؟ ؟

سعيد الأفغاني

---

(١) يصح أن نطلق (أبناء السوداوات) على الذين يقومون فى المجتمع الاسلامى ، فى ميادينه الفكرية والعلمية والتربوية والسياسية و ... بمثل مهمة (الطابور الخامس) لأيامنا هذه ، تسمية لهم باسم أعظمهم شراً ودساً وكيداً : عبد الله بن سبأ ، ابن السوداء .

(٢) من كتابنا المعد للطبع (عائشة والسياسة) .